من ظرفاء العصر العباسي :

أبو دلامة

توفي سنة ١٦١ هـ

للأستاذ صبحي إبراهيم الصالح

— ٣ —

عرف أبو دلامة بخل المنصور ، وأنه لن ينال منه العطاء إلا بعد تعب طويل ، فكان ينتهز الفرصة في إرضائه بما يعلم أنه يستريح إلى سماعه . فهو مثلا يعرف أن المنصور — بعد قتله أبا مسلم الخرساني — كان يجب من الناس أن يبرروا عمله ويعتبروا أبا مسلم مستحقاً لتلك المأساة التي ختمت بها حياته ، فلينتهز أبو دلامة هذه الفرصة ولينشد المنصور في محفل من الناس :

أبا مسلم خوفتني القتل فانتحى
عليك بما خوفتني الأسد الورْدُ
أبا مسلم ما غير الله نعمةً على عبده حتى يغيرها العبد

وإنك لتجد في هذين البيتين قوة في السبك تشرك بأن أبا دلامة لم يكن في القصيد شيئاً يستهان به أو يستخف بوزنه . لذلك سر المنصور بهذه القصيدة وقال لأبي دلامة : احتكم ، قال : عشرة آلاف درهم . فأمر له بها : فلما حلا به قال له مازحاً : إيه ! أما والله لو تمنيتها لأعطاك ! (١)

بل لقد أعطاه المنصور داراً وكسوة لإعجابه بقصيدة وصف له فيها سوء حاله وقلة ماله وجوع أهله ، ومدحه فيها وأثنى على بني العباس واسمع إذا شئت هذه القصيدة :

هاتيك والدتي عجوز هرمة (٢)
مثل البليلة دِرعها في الشَّجب (٣)

(١) الأغاني ج ١٠ ص ٢٣٥
(٢) الهمة : العجوز الفانية .
(٣) الشجب (ومثله الشجاب) خشبات مرتفعة منصوبة توضع عليها الثياب وتنشر . يريد أن أمه فنيت حتى أشبهت خشبات الشجب .

المرعية لدى الحكام والمحكومين ؟

ألم يتابع — وهو في مرتفعه — تطور الحوادث العالمية مقدراً ما سيكون لها من أثر على مستقبل مصر ؟ ألم يدرك بثاقب فكره وحسن تقديره ، ونفاذ بصيرته ، حقيقة العلاقة بين انجلترا ومصر ؟ وأن واجب مصر يحتم عليها الأخذ بأسباب القوة حتى لا تلتهمها تلك السمكة الكبيرة ؟

ولقد فعل فلم تكشف انجلترا عن نواياها ، حتى إذا تركنا الأخذ بأسباب القوة ، وتنكبنا الطريق التي رسمها ، هب إعصار الإنجليز ، فاكتسح استقلالنا ، ومسخ قوميتنا ، وشوه تاريخنا !

حقاً ، لقد أبدت الحوادث صدق نظر محمد علي وسداجة الرحالة السويسري !

وهكذا تفتحت عبقرية محمد علي الكبير وهو بعد لما يزل والياً صغيراً !

لقد أحب مصر فحرجة للشعب والمهام ، وتمنى أن لو كان لديه أكثر من روح واحدة حتى يقدم الآلاف في سبيلها !

ولقد ضحى فعلا بأبنائه بإسماعيل وبطوسون وبإبراهيم ، وأخيراً بروحه هو نفسه .

وهكذا أعطى مصر أكثر مما أعطته ، ومنحها أكثر مما منحته وأصبح اسمه علماً على نهضتها وعظمتها في تاريخها الحديث .

لقد أخلص محمد علي في حبه لمصر لمشوقته الحسناء ، وفتاته الهيفاء ، حتى الرمق الأخير ...

فلا عجب إذا احتفلت قلوب المصريين بذكرى المؤسس الأول الخالد في سجل الخالدين وهي تهتف بلسان واحد :

حقاً لقد كان عبقرياً !

كمال السيد درويش
مدرس بالرمل الثانوية — الإسكندرية
ليسانسيه الآداب بامتياز ودبلوم معهد التربية العالي
وعضو الجمعية التاريخية الملكية بجامعة فاروق

سهولة اللحيين[1] من يرها يقل

أبصرت غولاً أو خيال القطرب[2]

ما إن تركت لها ولا لابن لها ... مالاً يؤمل غير بكر أجرب

ودجاجاً خمساً يرحن إليهم ... لما يبضن، وغير عشر[3] مغرب

كتبوا إلي صحيفة مطبوعة[4] ... جعلوا عليها طينة كالمقرب

فعلمت إن الشر عند فكاكها ... فككتها عن مثل ريح الجورب

وإذا شبيه بالأفاعي رقشت ... يوعدني بتلمظ وتثؤب

يشكون أن الجوع أهلك بعضهم ... تربا[5] فهل لك في عيال تؤب

لا يسألونك غير ظل سحابة ... تنشاهم من سيلك التحناب

يا باذل الخيرات بان بذولها ... وابن الكرام وكل قوم منجب

انتم بنو العباس يعلم أنكم ... قدماً فوارس كل يوم أشهب

أحلاس[6] خيل الله وهي مغيرة

يخرجن من خلل الغبار الأكهب[7]

وكانت الدار التي أعطاها المنصور أبا دلامة قريبة من قصره، فأمر بأن تزاد في قصره بعد ذلك لحاجة دعته إليها. فدخل عليه أبو دلامة فأنشده قوله:

يا بن عم النبي دعوة شيخ ... قد دنا هدم داره ودمارُه

فهو كالناقض التي اعتادها الطل ... ق فقرّت وما يقر قراره

إن تحز صره بكفيك يوماً ... فبكفيك صره ويساره

أو تدعه فلجوار وأنى ... ولماذا وأنت حي جواره؟

هل يخاف الهلاك شاعر قوم ... قدمت في مديحهم أشعاره؟

لكم الأرض كلها فاعيروا ... شيخكم ما احتوى عليه جداره

فكأن قد مضى وخلف فيكم ... ما أعرتم وأفقرت منه داره

فاستعبر المنصور، وأمر بتعويضه داراً أخيراً منها ووصله.[8]

ولو لم يتأثر بمساق الشعر أبو جعفر، لما دمعت عيناه فاستعبر ولما عوض عليه تلك الدار بأحسن منها وطيب خاطره وأجزل صلته مع علمه بأنه أكثر إجادة للتمثيل منه لوصف حقيقة حاله. وانظر إلى تخيل أبي دلامة واستخدامه الأساليب التي ترقق من قلب المنصور تارة، وتضحكه حتى تبدو نواجذه تارة أخرى، يوم دخل عليه فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

إن الخليط أجد البين فانجموا[1]

وزودوك خيالاً بئس ما صنعوا

والله يعلم أن كادت أنيتهم ... يوم الفراق حصاة القلب تنصدع

عجبت من صبيتي يوماً وأمهم ... أم الدلامة لما هاجها الجزع

لا بارك الله فيها من منية ... هبت تلوم عيالي بعد ما هجعوا

ونحن مشتهو الألوان أوجهنا ... سود قباح وفي أسمائنا شنع

أذابك الجوع مذ صارت عيالتنا ... على الخليفة منه الري والشبع[2]

لا والذي يا أمير المؤمنين قضى ... لك الخلافة في أسبابها الرفع

ما زلت أخلصها كسبي فتأكله ... دوني ودون عيالي ثم تضطجع

شوهاء مشأة في بطنها تجل[3] ... وفي المفاصل من أوصالها فدع[3]

ذكرتها بكتاب الله حرمتنا ... ولم تكن بكتاب الله تنتفع

فاخر نطت[4] ثم قالت وهي منتبذة

أأنت تتلو كتاب الله يا لكع

اخرج لتبغ لنا مالاً ومزرعة ... كما لجيراننا مال ومزدرع

واخدع خليفتنا عنها بمسألة ... إن الخليفة للسؤال ينخدع

ولقد انخدع أبو جعفر حقاً بهذه المسألة فإنه ضحك ثم قال: أرضوها مني واكتبوا له بمائتي جريب عامرة ومائتي جريب غامرة فقال له: أنا أقطعك يا أمير المؤمنين أربعة آلاف جريب غامرة

---

(١) اللحى عظم الحنك وهو الذي عليه الأسنان.

(٢) القطرب هنا: ذكر الفيلان أو الصغير من الجن.

(٣) العير: (بالفتح) الحمار. والمغرب: الذي اشتد بياضه حتى تبين محاجره وأرنافه. (٤) مطبوعة: مختومة.

(٥) التؤب ضيق النفس (٦) أحلاس الخيل هنا: اللازمون ظهورها (٧) الكهبة: غبرة مشربة سواداً.

(٨) الأغاني ج ١٠ ص ٢٠٩

(١) راعى في ضمير الخليط اللفظ فأفرد (أجد البين) والمعنى لجمع (انجموا) وهذا يائز لغة على حد قوله تعالى (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم) أي كمثلهم كمثل الفريق الذي ... والفريق كالخليط كلاهما من الأسماء التي يدل معناها على الجمع

(٢) وروى هذا البيت:

إذا تشكت إلى الجوع قلت لها ... ما عاج جوعك إلا الري والشبع

وما رويناه أجود.

(٣) التجل: عظم البطن واسترخاؤه. والفدع: الاعوجاج

(٤) انخرنطت: رفعت رأسها وتأكبرت

فيا بين الحيرة والنجف ، وإن شئت زدتك . فضحك وقال : اجعلها كلها عامرة[1]

ولعلك تذكر أن قد مر بك — حول الجريب العامر والجريب الغامر — محاورة شبيهة بهذه بين أبي دلامة والسفاح فلا تسرع إلى اعتبار إحداهما موضوعة ، فكثيراً ما يستطيب اللاحق نكتة السابق فيتناقلها استمتاعاً بها ورغبة في سماع جواب جديد عليها . وجواب أبي دلامة للمنصور هنا — وإن أشبه جوابه للسفاح — إلا أن الرد الجديد أكثر طرافة . فقد قال هناك : قد أقطعتك أنا يا أمير المؤمنين خمسمائة ألف جريب غامرة من فيافي بني أسد ، ولم يكتف بفيافي بني أسد مع النصور فقد أبعد الشقة فقال له : أنا أقطعك يا أمير المؤمنين أربعة آلاف جريب غامرة فيا بين الحيرة والنجف ، وإن شئت زدتك .

ولأبي دلامة في مسألة المنصور والوصول إلى عطائه أسلوب أدعى إلى النزاهة من كل ما سبق ، فقد تطوع له نفسه تلفيق الرؤيا ، وهو يعلم أنه متهم بالكذب فيطلب من الخليفة تصديقه كأنه يريد أن يشهده على خداعه .

دخل على المنصور يوماً فأنشده :

رأيتك في المنام كسوت جلدي ثياباً جمةً وتمنيت دَيني
فكان بنفسجيٌّ الخز فيها وساجٌ[2] ناعم فاتم زيتي
فصدقْ يا قدتك النفس رؤيا رأتها في المنام كذاك هيني

فأمر له بذلك وقال له : لا تعد أن تتحلم[3] على ثانية ، فاجعل حُلمك أضغاثاً ولا أحققه[4]

وقديم يجد في نفسه الجرأة على تلفيق الرؤيا إمام الخليفة له من الدلال عليه ما يشفع له ، وإلا لالتمس لنفسه أسلوباً أسلم . ونعرف دلال أبي دلامة على المنصور من إعفائه إياه من السواد والقلانس دون الناس : فقد أمر أبو جعفر أصحابه بلبس السواد وقلانس طوال تدعم بعيدان من داخلها ، وأن يمتشقوا السيوف في المناطق ويكتبوا على ظهورهم (فسيكفيكم الله وهو السميع العليم) . فدخل عليه أبو دلامة في هذا الزي فقال له أبو جعفر : ما حالك ؟ قال : شر حال ، وجهي في نصف ، وسيفي في أستي ، وكتاب الله وراء ظهري ، وقد صبغت بالسواد ثيابي . فضحك منه وأعفاه وحده من ذلك ، وقال له : إياك أن يسمع هذا منك أحد[1] .

وفي هذا يقول أبو دلامة :

وكنا نرجي من إمام زيادة فجاد بطول زاده في القلانس
تراها على هام الرجال كأنها دنان يهود جللت بالبرانس[2]

فهل كان الخليفة يعفيه من ذلك اللباس من دون الناس لولا دلاله عليه ؟ —

(يتبع)

صبحي إبراهيم الصالح

(١) الأغاني ج ١٠ ص ٢٣٦ . وفي معجم الأدباء ج ١١ ص ١٦٦

(٢) البرانس : جمع برنس قلنسوة طويلة ، أو كل ثوب رأسه منه

(١) الأغاني ج ١٠ ص ٢٣٧

(٢) الساج : الطيلسان الأخضر وقيل الأسود وقيل المقور يتخذ كذلك . وفي الأساس : «لبسوا السيجان وهي الطيالسة المدورة الواسعة»

(٣) تحلم فلان : قال حلمت بكذا وهو كاذب

(٤) الأغاني ج ١٠ ص ٢٥١

إدارة الكهرباء والغاز لمدينة القاهرة

إعـــلان

تعلن إدارة الكهرباء والغاز لمدينة القاهرة أنه اعتباراً من أول سبتمبر ١٩٤٩ يجب على جميع المشتركين إطفاء ما لديهم من إعلانات مضيئة ومن أنوار موضوعة على واجهات المحال التجارية وذلك فيما بين الساعتين ١٧ و ٣٠ و ١٩ شتاء ، ١٨ و ٣٠ و ٢٠ صيفاً ما عدا اللمبة المخصصة للحراسة الليلية ويستثنى من قيد الأطفاء دور السينما ومسارح التمثيل

وكل مخالفة تترتب عليها عدم تجديد عقود الاشتراك ، إلا بعد دفع غرامة تقدرها مشرون جنيهاً .

٢٤٢٦